

عولمة الثقافة

(المستحيل والممكن)

الأستاذ : نور الدين زمام

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية

جامعة بسكرة.

ملخص :

ترى بعض وجهات النظر أن العولمة ستكتسح كل أوجه الحياة الاقتصادية، السياسية والثقافية، وبالتالي فقد يكون من آثارها التأثير على الهوية الثقافية والخصوصيات المحلية. وتأتي أهمية هذه الورقة، في محاولة إثارتها لهذا الموضوع، قصد معرفة مدى تأثير العولمة على النسق الثقافي للمجتمعات، ومناقشة مدى إمكانية انبثاق ثقافة مُعولمة.

Résumé :

Selon quelques opinions ; la mondialisation a une grande influence sur les phénomènes (économique, politique, culturel, etc.) au point qu'elle tende à revêtir une dimension proprement planétaire. Notre objectif est de déceler cette influence sur le système culturel, et de débattre la problématique du processus de la mondialisation culturelle.

تمهيد :

تنطوي ظاهرة **العولمة** << Mondialisation >> بوصفها نزعة شمولية توسعية، على أشكال خاصة للتوسع والتعامل على الصعيد المحلي والعالمي، وعلى نحو فريد يعبر نطاق الزمان وضغوط المكان. وتميل أغلب الدراسات إلى اعتبار هذه الظاهرة نتاجا للتطور التقني المتسارع في مجال المعلوماتية والنقل والاتصال، وكمحصلة لتطورات اقتصادية وسياسية وثقافية أدت إلى اشتداد التزوع الشمولي والتوسعي للرأسمالية، لدرجة أنها أصبحت توصف "بالرأسمالية النفائثة" (13: 35)

تعتبر الثقافة، ضمن هذا السياق، أحد الأوجه التي تشهد اليوم منعطفات جديدة إن من حيث مضامينها أم من حيث تطوراتها محليا وعالميا. ومن هنا يأتي التساؤل الأساس لهذه الورقة، والذي مفاده: إلى أي مدى يمكن أن تتأثر الثقافة على الصعيد العالمي والمحلي بموجة العولمة؟ وهل نحن على مشارف ثقافة معولمة تتجاوز نطاق الذات والتاريخ والخصوصيات والتصورات؟

أولا- إرهابات العولمة:

ساهم **التقدم التقني** في تشجيع التعاملات المالية والاقتصادية، والتوجه بالاقتصاد العالمي إلى ما يسميه بسميه "أنثوني جيدنز" (Anthony Giddens) "النقد الإلكتروني"، وهو النقد الذي لا يوجد، حسب رأيه، سوى في صورة أرقام على الكمبيوتر (10: 20). ويرجع الفضل في هذا التقدم إلى نوعين أساسيين من التقنيات وهما: النقل «Les transports» والاتصالات «Les communication» (44: 25)

بالإضافة إلى ذلك ساهمت عدة وسائل وآليات اقتصادية، اجتماعية، ثقافية وسياسية في دفع هذا التوجه العالمي. وقد تجسدت في جملة من المنظمات والوسائل، أصبح بعضها مع حلول **العولمة** قليل التأثير، في حين اتخذ البعض الآخر أشكالا متجددة (قارن، 4: 54)

1- الشركات العابرة للقارات، التي كان لها دور بارز في تعميق نزعة التوجه العالمي، فضلا عن دورها الرائد الاقتصادي وما فوق - اقتصادي، في تأمين وحماية المشروع الرأسمالي التوسعي. وبالرغم من جذورها التاريخية (39: 138) إلا أنها أصبحت من أخصّ خصائص مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية (16: 94) وهي اليوم المرتكز المحوري للعولمة، فهي التي تدير << العالم كما لو كان سوقا >> (3: 104)

2- البنوك والمنظمات المالية الدولية، ومحمل "النظام النقدي الدولي" SMI الذي أدى إلى تكامل الأسواق العالمية والرأسمالية الدولية في بناء هرمي << توجد قاعدته الأساسية في المصارف الدولية

الكبرى، وعدد من المؤسسات الدولية المتعددة الأطراف، على رأسها صندوق النقد الدولي والبنك العالمي للتنمية << (21 : 103)

3- العلاقات التجارية الدولية، شبكتها وبنيتها « Structure » واتفاقاتها الأساسية ("الغات" « GATT » : أكتوبر 1947) وجولات الحوار المختلفة (جولة كينيدي 63-1967، جولة طوكيو 73-1979) فقد ساهمت كلها في تأطير والتمهيد لزرعة العولمة، بل يمكن إدراج حتى المؤسسات الأخرى، التي حاولت طرح بدائلها لتنظيم المبادلات الدولية « LOCDE » (1961) أو « CNUCED » (1964) ضمن ذلك، فهي بذلك قد ساهمت في عولمة النضال، وهو ما يعتبره البعض أهم وإيجاد تيار مناوئ لها للعولمة.

4- تشجيع السياحة وخدماتها، كواسطة لنقل للطراز والقيم الثقافية (20: 127) وتنجير « La commercialisation » عناصر الثقافة الشعبية ومختلف ألوان الإبداع، مع محاولة تعميم قيم الاستهلاك التفاخري الغربي، وخلق "مجتمع استهلاكي" عالمي واحد، يتبنى فيه جميع سكان العالم نفس الأذواق والعادات الاستهلاكية، بشكل يتجاوز حدود العرق والجغرافية (5: 45-46).

تأسيسا على ما سبق، فقد تضافرت هذه الآليات كلها، لتشكيل منظومة عابرة للقوميات والأوطان، وصل تأثيرها إلى أبعد الأصقاع وأدنى الطبقات، فحتى الفلاحين لم يسلموا من عواقب الاندماج بالسوق ونظامها النقدي (28: 312)

ثانيا - مفهوم العولمة :

أدى الظهور الإعلامي الجديد لمفهوم العولمة، إلى تباين حاد حول مدلوله، مضامينه، مرامييه ونتائجه.. ويبدو أن هذا التباين ناتج عن صعوبة التكهن بآثار العولمة، وعن محاولات البعض حقن المفهوم بدلالات أيديولوجية.

يشير مفهوم العولمة من الناحية اللغوية إلى : تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله. وفي حين أن هذا التوسع يتخذ نزعة توسعية في ظل العولمة، كما يرى محمد الجابري، إلا أنه في إطار "العالمية" >> Universalité, Universalisme يكشف عن طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي إنساني. فالعولمة احتواء للعالم، وكانت العالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني (11: 16-17)

وعلى صعيد آخر، فبينما يركز الاقتصاد الدولي على علاقات اقتصادية بين دول ذات سيادة، فإن العولمة تخترق الحدود وتخطي القوميات ولا تقف دون انتشارها الدولة واعتبارات السيادة (2: 101) وفي ذات السياق فإذا كانت العولمة تقوم على سيادة الطرف الأقوى وتبعية الطرف الأضعف، فإن "العلاقات الدولية"

تتعقد بين دول ذات سيادة، ولذلك تعتبر الدولة هي المكون الأساس في العلاقات الدولية، هذا في حين يرجع الحكم إلى الشركات المتعددة الجنسية في كنف العولمة (27 : 10)

وعليه، فالعولمة تتضمن اتجاه توسعي، تزرع بمقتضاه التباين والتفاوت بين أطراف التعامل الدولية، سواء فيما تعلق بأشكال الانخراط في الأسواق أو في مدى الاستفادة من منتجات العولمة الثقافية والاقتصادية. بحيث لا يمكن الجزم بتحقيق تماثل على المستوى العالمي في المنظور القريب، كما لا يمكن بناء استنتاجات إيجابية، خاصة على الصعيد الاقتصادي انطلاقاً من أطروحة "الاستعمار المعاكس" <<Reverse colonization>> التي ترى في هروب بعض الصناعات، من بلدان الغرب إلى البلدان النامية، ورجوعها إليه في شكل مصنع، أحد ثمار العولمة، التي أنجبت شكلاً جديداً للاستعمار (10: 26)

وفي النهاية فإن العولمة، تقوم على عدم التكافؤ في التوسع والاشتغال والانتشار، ولذلك فعوض الحديث عن قرية كونية في ظلها، يمكننا أن نقول، مع أنتوني جينز، أن العالم يبدو في حالة هب كوني (10 : 26) .

ثالثاً- طبيعة التجليات الثقافية للعولمة :

- يتطلب الحديث عن العولمة في مجال الثقافة الأخذ بعين الاعتبار نقطتين اثنتين:
- تتعلق النقطة الأولى بتحديد مدلول الثقافة ذاته، والوقوف على ما يختزنه المفهوم عينه، من مفاهيم عديدة (قيم، سلوك، تصرفات، معايير، تصورات ونظم..)
- أما النقطة الثانية فتتعلق بمدلول العولمة الثقافية وعملية عولمة الثقافة، لأن ذلك يقتضي رسم خطوط التداخل والتباين بين جملة من المفاهيم، التي تصف العلاقة والتفاعل بين الثقافات سواء تم ذلك بطرق سلمية ثقافية أو تم بطرق عنيفة "ما فوق ثقافية" «Extra-culturelle».
- ومن بين هذه المفاهيم : مفهوم "التثاقف" « Acculturation » ومفهوم "الغزو الثقافي" « La conquête culturelle », ومفهوم "التبعية الثقافية" « La dépendance culturelle », بالإضافة طبعاً لمفهوم عولمة الثقافة أو العولمة الثقافية « La mondialisation de la culture »

1- مفهوم الثقافة :

يعتبر مفهوم الثقافة من المفاهيم التي تثير الكثير من الغموض والجدل، ويرجع ذلك إلى التطور اللغوي والفكري للكلمة، مما يستدعي تتبع شجرة تطورها، والوقوف على أصولها وتطور دلالاتها اللغوية والاصطلاحية

(7:37) كما يرجع ذلك، أيضا، إلى تشابك المفهوم مع كلمة مجاور له، وهي: كلمة الحضارة «Civilisation» > التي ظهرت تقريبا في نفس الفترة التي ظهرت فيها كلمة ثقافة بمعناها الفكري> (7:15)

أ - مسار المفهوم:

بالنسبة للغة العربية، لم يكن فعل "ثقّف" في معاجمها يتطابق مع الاستعمالات الجارية اليوم، ففي القرن التاسع عشر تحدّث فرنسيس فتح الله المراس (1836-1873) عن "ثقيف العقل"، الذي يتم حسب رأيه من خلال الترويض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية. وبعد اطلاع الكتاب العرب على إنجازات الأنثروبولوجية الغربية وعلم الاجتماع، ظهرت تعريفات قريبة من الاستعمال الأكاديمي الحديث، الذي لا يقصر هذا المفهوم على التربية والتعليم (24:129-131) بل يتجاوزه، بحيث ينظر إليه بوصفه أسلوبا لممارسة الحياة الاجتماعية، وليس بالضرورة الجهد المنفق لاكتساب المعرفة أو بوصفه أنماطا لممارسة الحياة الاجتماعية.

أما بالنسبة للغات اللاتينية، فبغض النظر عن أصلها الألماني (41:105-104) أو الفرنسي (37:8) فقد أدى تطور مدلولها إلى تباين التعريفات، ومن الطبيعي أن يؤثر ذلك على تصور البعض للعولمة في مجال الثقافة.

ففي هذا الصدد، نجد أنفسنا عند تعريف الثقافة، أو كشف المضامين التي تخلع عليها، أمام تعاريف عديدة، حتى أن "ألفراد كروبر" (Alfred Kroeber) و "كلاكهون" (C. Kluckhohn) قد أحصيا ما يزيد عن 160 تعريفا في اللغة الإنجليزية في ذلك الوقت (31:110)

ولحل هذه المعضلة، لجأ العلماء إلى تصنيف هذه التعاريف، فـكروبر وكلاكهون مثالا أشارا إلى سبعة أصناف من التعاريف: وصفية، تاريخية، تقييمية، بيسيكلوجية، بنيوية، تكوينية وأخيرا تعاريف جزئية أو غير كاملة (15:8)

أما "جون بير مارتينون" (Jean-pierre Martinon) فمميّز بين نوعين من التعاريف، تعريف جزئي محدود يستعمل مصطلح الثقافة لوصف التنظيم الرمزي لأي جماعة، وعملية تناقل ذلك التنظيم الرمزي، وكذا مجموع القيم التي تشكّل تصور الجماعة لذاتها، ولعلاقتها بالجماعات الأخرى وبالعالم الطبيعي. وتعريف واسع - لا يتناقض والتعريف الأول- يستعمل مصطلح الثقافة لوصف العادات، المعتقدات، اللغة، الأفكار، الذوق الجمالي والمعارف التقنية، كما يستعمله لوصف تنظيم المحيط العام للإنسان: الثقافة المادية، الأدوات، السكن؛ وبصورة عامة، مجموع التقنيات القابلة للنقل (التبليغ)، والتي تنظم علاقات وتصرفات الجماعة الاجتماعية مع البيئة (38)

وفي ذات الصدد، يؤكد دنيز كوش على نوعين من التعاريف، التعريف العام (والوصفي) للثقافة الذي قدمه تايلور : >> الثقافة أو الحضارة، بالمعنى الاثنوغرافي الواسع، هو المجموع المعقد الذي يضم المعارف، المعتقدات، الفن، القانون، الأخلاق، الأعراف وكل الاستعدادات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضو في المجتمع>> وتعريف "فرانز بوا" (Franz Boas) **الخصوصي**، الذي يرجع إليه الفضل في طرح مفهوم "النسبية الثقافية" « Relativisme culturel »، فهو يؤمن بأن الثقافة فريدة، وذات طابع خصوصي. كما يؤمن بتعدد النسق الثقافي، مما يستدعي من الناحية المنهجية الحيطة والحذر عند الدراسة، فالنسبية الثقافية تنطوي على تصور نسبي للثقافة أيضا (37: 20-18)

تأتي أهمية دراسة وتتبع تطور مدلول الثقافة، من كونها ترسم لنا صورة حقيقية عن خطورة العولمة في هذا المجال، وفي هذا السياق تأتي أهمية الإسهام الذي قدمه فرانز بوا، الذي يعد أول من أشار إلى خصوصية الثقافة، مما يعني خطورة حرق أو اختراق هذه الخصوصية.

وبالإضافة إلى ذلك كشفت الاتجاه الوظيفي الذي يتزعمه "مالينوفسكي" (Malinowsky) عن أهمية "الكل الثقافي" بالنسبة للمجتمع، بعد أن عاب على الاتجاه الانتشاري « Diffusionniste » الذي ينتمي إليه فرانز بوا تحليله الجزأ، ومن هنا ، تأتي أهمية ترابط العناصر الثقافية، واحتلال كل واحد منها مكانة فريدة، حيث لكل عادة أو فكرة أو شيء أو معتقد وظيفة حيوية محددة، أو مهمة يقوم بها (37 : 33) مما يشير إلى خطورة المساس بأي عنصر منها.

وفي الختام، فعلاوة على خصوصية الثقافة وترابط عناصرها، فهي تعقد، أو بفضلها تنعقد، علاقة متينة بالشخصية⁽¹⁾ واللغة⁽²⁾ والهوية⁽³⁾، مما يعني بأن المساس بأحد عناصر الثقافة أو التأثير عليها سلبا ينجر عنه نتائج ثقافية واجتماعية خطيرة.

ب - بين الثقافة والحضارة :

هذا، ويرجع السبب الثاني في غموض مصطلح الثقافة إلى ما شهده مدلول الثقافة في سياق تطوره من تداخل أو تمايز في المعنى مع مفهوم الحضارة.

بدأ التمييز بين المفهومين بتأثير من المؤرخين الألمان، ثم تطور الأمر وأصبح هناك أطروحتين :

1 ترى الأولى أن الثقافة هي مجموع الوسائل الجماعية التي يمتلكها الإنسان أو المجتمع، للتحكم والتأثير على البيئة الفيزيائية والعالم الطبيعي. وترى أن الحضارة تضم مجموع الوسائل الجماعية التي يؤثر بها الإنسان على ذاته لتحقيق الارتقاء الفكري والأخلاقي والروحي، ومن هنا تصبح الفنون والفلسفة والدين والقوانين بعض مظاهر الحضارة.

2 أما التمييز الثاني فهو على عكس من الأول، يخص الحضارة بجملة الوسائل التي يُنَاط بها تحقيق غايات مفيدة ومادية للإنسان، ولعل ذلك ما يجعلها تتسم بالعقلانية، أما الثقافة فهي تضم الجوانب الروحية الجماعية، بوصفها ثمرة التفكير والمثالية. (41: 109-108). غير أن التطورات المعاصرة جعلت الكثير

من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين لا يحفلون بهذا التمييز بين الكلمتين. (41 : 113)

وبالطبع، لم يبق المفكرون العرب والمسلمون بمعزل عن هذا النقاش الفكري، فرغم تأثره كتاباتهم الأولى، كما لاحظ بن نبي (في عام 1959)، بالمدرسة الأمريكية ("وليام أجبرن" و"رالف ليتون" ..) (8: 73) إلا أن هناك بعض المحاولات المتميزة، مثل ما هو الشأن عند مالك بن نبي والمفكر الرئيس علي عزت بيجوفيتش.

فالثقافة حسب بن نبي هي: <<مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية، التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته>> (9: 125) وهي أيضا " المحيط الذي يعكس حضارة بعينها، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر"، وهي مُكوّن للحضارة، ولذلك فإذا فتدهور الثقافة، يجعلها تفقد وظيفتها الحضارية (9 : 126).

أما على عزت بيجوفيتش فقد اعتبر الحضارة "استمرار للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد، أي التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة" و" استمرار للتقدم التقني لا الروحي"، واعتبر الثقافة سماوية " بما تشتمل عليه من دين وفن وأخلاق وفلسفة.. " (7 : 94-95).

وهكذا، فبسبب التداخل بين الثقافة والحضارة ظهرت الأطروحات المتخوفة من النتائج الحضارية للعولمة، وتنبئ بعضها بصدام الحضارات، في حين دعا البعض الآخر إلى حوار الحضارات.

2- التشخيص الفكري للاتصال بين الثقافات:

يعدّ جورج بالنديه من بين أبرز العلماء الذين درسوا أشكال الالتقاء أو الاتصال بين الثقافات، حيث وجّه اهتمامه في إطار علم الاجتماع الدينامي « sociologie dynamique » إلى دراسة التغيرات والتبدلات والحركات الاجتماعية وضرورة المجتمعات (6: 44)

وكان من نتائج هذه الأعمال التي قام بها هو وغيره، سك مفاهيم جديدة مثل مفهوم **التشاقف**، والذي يعني << عملية انتشار القيم والمقاييس والأحكام الاجتماعية إلى المجتمعات الأخرى، مع تعرضها لعملية التبدل التي تجعلها منسجمة مع ظروف وأحوال المجتمعات التي دخلت إليها >> (12: 31) كما يعني أيضا عملية تحوير ثقافة ما من خلال التقائها بثقافة أخرى.

وقد ظهر هذا المصطلح في 1880 في الأدبيات الأنثروبولوجية والتاريخية الأنجلوسكسونية، وقد منح ريدفيلد تحديدا شاملا في عام 1935، فهو يشير، حسب رأيه، إلى الظواهر الناتجة عن الالتقاء المباشر والمستمر بين مجموعة أفراد ذات ثقافات مختلفة، وينجر عن هذه الظواهر تغيرات لأنماط عديدة من النماذج الثقافية القاعدية لكل مجموعة أو لإحداها فقط (43 : 8-7)

ومن جهته تناول "فورترز" « M Fortes » هذا الالتقاء بين الثقافتين أو الحضارتين، من خلال ما أطلق عليه "صيرورة الديناميكا". وهو يميز بين مظهرين من مظاهر التماس بينهما، فهناك أولا العلاقة الناشئة بين ثقافتين متقاربتين نسبيا، وهناك ثانيا العلاقات المفروضة من طرف الاستعمار الحديث، الذي يسعى إلى تعميم « L'universalisation » المدنية الصناعية (34 : 37).

وظهرت أعمال أخرى أيضا تناولت الديناميكا الناجمة عن العوامل الخارجية، من خلال ما اصطلح عليه "الاتصال الثقافي" « contact culturel » وتداخل الحضارات « l'interpénétration des civilisations » حسب تعبير "ر. باستيد" (R. Bastide) غير أن هذه العلاقة كما يلاحظ بالندية كثيرا ما حُللت بطريقة تبسيطية وميكانيكية، حتى من طرف مالينوفكسي الذي وضع نظريته عن الثقافات الثلاث : الثقافة التقليدية الأهلية، الثقافة الأوروبية المستوردة، والثقافة الجديدة "الناتجة" عن العلاقة القائمة بينهما، وما يكتنفها تبعية متبادلة (34 : 38)

وبالمقابل هناك أعمال أخرى تناولت هذا الالتقاء من خلال ما سمي بالغزو الثقافي، وهو المفهوم الذي عرفه جلال أمين بوصفه : >> اعتداء رأسمالي على الهوية الثقافية للأمة المعتدى عليها، من أجل استغلالها اقتصاديا، كما يمكن أن نصنفها بأنها غزو دين لدين، وإحلال ثقافة أمة محل ثقافة أخرى>> (1 : 50) فحسب الكثير من الباحثين فإن الاستعمار الذي خبرته المجتمعات المتخلفة لم يستهدف أبنيتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فقط، بل تعدى الأمر إلى محاولة القضاء على أبنيتها الثقافية، خاصة منها القيم والأفكار القابلة للتجديد والاستمرار والمقاومة (14 : 58) ولذلك كان الاستعمار يمهّد لحملاته في كثير من الحالات بإرسال فرق التبشير، التي كانت تنشئ المدارس والجمعيات، وتتولى التحسس وزرع الشكوك وزعزعة العقائد وخلق الفتن والاضطرابات التي تتيح للدول الاستعمارية التدخل والهيمنة (33 : 25-26).

وبعد الحرب العالمية الثانية، ابتكر الاستعمار الجديد، أساليب وآليات جديدة للغزو الثقافي، والهيمنة الأيديولوجية، ليسهل له نهب ثروات البلدان الحديثة النشأة، حيث قام بتوظيف الإعلام والثقافة في مجتمعات العالم الثالث لترسيخ التبعية الاقتصادية للبلدان الضعيفة، ووضع إمكانياتها الثقافية والإعلامية في خدمة مصالح

رأس المال العالمي وأجهزته، وتحويل العالم إلى قرية إتصالية شديدة الترابط، كما يقول " هربرت شيللر" (Herbert Shiller) (16 : 44) (23) .

هذا وقد حاول أنصار مدرسة التبعية الثقافية والإعلامية (ظهرت في أمريكا الشمالية) الكشف عن دور الإمبريالية الإعلامية للولايات المتحدة الأمريكية، وتناولهم لأخطارها الاجتماعية والثقافية، وكشفهم لأضاليل أنصار أيديولوجية التحديث من باحثي " معهد ماساشوسيت (Massachusetts) التكنولوجي " (16 : 45-50)

3 - عولمة الثقافة :

تعتبر العولمة الثقافية مزيج من هذه السياسات والآثار الناتجة عن الاتصال الثقافي (والاجتماعي) غير المتكافئ، مع إضافة حقن جديدة تتلاءم وأهداف العولمة وديناميكياتها. فهي تتوفر على ثقافة خاصة، أطلق عليها سمير أمين " ثقافة العولمة"، وهي تتمثل في ثقافة الرأسمالية السائدة عالمياً، والتي تعيد تكوين الخصوصيات المحلية. وهو بالمقابل يدعو إلى عولمة بديلة تزدهر فيها الخصوصية في إطار من المنظومة الكلية، وبماكانها أن تنتج ثقافة عالمية، أي " عولمة الثقافة"، (3 : 62-63)

وتحاول هذه الورقة تناول البعد الثقافي للعولمة من وجهين:

الوجه الأول:

نؤكد فيه في البداية على عدم انطواء العولمة، بشكلها الراهن، على تعميم شامل لرأسمال ثقافي إنساني موحد، من شأنه تقريب الشعوب والمجتمعات وتحقيق تلاقح فيما بينها، عكس ما يعتقد أنصار " علم الاجتماع الكوني " (27 : 31)، ونكاد نجزم بعدم اتجاه العولمة الراهنة لأن تنشئ ثقافة واحدة، فهذا مستحيل لأسباب كثيرة :

أولاً: لأنه لا يتفق وطابع الهيمنة واللاتكافؤ المصاحب لصيرورة العولمة، فالعولمة الثقافية لا تختلف في هذا الصدد عن العولمة التقنية، التي تسعى لاحتكار السوق، ونشر منتجاتها، دون أن يعني تصدير المعرفة بالتقنية، وتعميم القدرة على الخلق والإنتاج. فهي لا تسعى لعولمة الثقافة، ولكن لتصدير منتجاتها، أي منتجات الثقافة.

ثانياً: تحول الخصوصيات الثقافية دون انخراط كافة الهويات والشعوب في بوتقة ثقافية واحدة، فنحن، على العكس من ذلك، نشهد انبعاث ثقافات متعددة، وانتعاش كيانات ثقافية جديدة. إذ جعلت أجهزة الإعلام المختلفة والمحطات الكبرى، الأقليات والهويات الثانوية تنتبه إلى خصوصياتها الثقافية وتاريخها الفريد. ولم تسلم حتى الولايات المتحدة من تأثير هذا الانتعاش الذي هز مشاعر الأقليات، فكانت النتيجة تنازلها عن أهم قواعدها الفكرية السياسية الذي كان يرمي إلى صهر الهويات والأقليات في بوتقة الهوية الأمريكية (17 : 8)

ثالثاً: عجز الغرب، بوصفه القائد في الوقت الراهن، عن تقديم بديل ثقافي عالمي يحترم آدمية الإنسان، ويحترم سنن المجتمعات والطبيعة والكون، فالثقافة الغربية - كما يقول أيضاً هنتغتون - **فريدة وليست كونية (22: 56-66).**

رابعاً: لا ينبغي اختزال التأثير على الثقافات الأخرى من خلال التدليل على انتشار وتجييد نمط الاستهلاك الغربي أو المنتجات الغربية، على نحو ما تذهب "أطروحة استعمار الكوكا"، التي تختزل مجال الثقافة باستهلاك السلع المادية، في حين أن روح الثقافة تشمل اللغة، الدين، القيم والعادات. كما أن انتقال السلع الغربية لا يعني بالضرورة انسلاخ المستهلكين عن ثقافتهم.

خامساً: بالرغم من انحسار الحديث عن التنمية المستقلة، في ظل التسليم المطلق، والخنوع "الإرادي" للسيطرة الخارجية، باسم العولمة واقتصاد السوق، إلا أن ذلك لا يعني أن البلدان والشعوب النامية سينتهى دورها، أو أن التحديث في ظل العولمة يعني حتماً بداية انتهاء الاستقلالية والخصوصية والتغريب الثقافي، بل قد يؤدي ذلك إلى مزيد من التمسك والالتزام بالثقافات الأصلية لدى مختلف الشعوب (22: 56-66).

الوجه الثاني :

غير أن استحالة تعميم ثقافة ما، لا يعني عدم إمكان وجود تأثير للعولمة على الصعيد الثقافي :

أولاً - تعمل العولمة من خلال آليات على إضعاف الثقافات المحلية، أو محاولات خلق أزمة هوية خاصة في البلدان الممزقة بخاصة. ويمكن ملاحظة ذلك عند دراسة التكنولوجيا الحديثة، فبوصفها أهم محرك للعولمة فهي تمثل أداة قهر بسبب تأثيرها على فردية الفرد وهوية الأمة، فهي تنطوي على زيادة درجة النمطية << Standardization >> في عملية الإنتاج وبالتالي الاستهلاك، والنمطية نقيض للتفرد والهوية، هذا فضلاً عن أنها، أي التكنولوجيا الحديثة، خلقت المستهلك الفرد حتى استلم لها، كما خلقت لبّ الأمم، فضحت تباعاً بجزء بعد آخر، من استقلالها الثقافي (1 : 53 / 59)

ثانياً - نجحت في فرض النموذج الأمريكي للحياة والاستهلاك والتصور، مما انعكس سلباً، على روح الإبداع والابتكار الذاتي، وكذا الاعتزاز بالانتماء لدى البعض، فعلى سبيل المثال نجحت السينما الأمريكية في استمالة العقول، وتعويدها على تحييد نمط الحياة والاستهلاك على الطريقة الأمريكية، وبات "غزو الصور" يغطي الكوكب كله، فلم تسلم من تأثيره حتى الدول الكبرى، حتى أن أطفال كندا - كما أشار أحد الخبراء - أصبحوا لا يدركون أنهم كنديون من فرط الغزو الإعلامي الأمريكي (32: 20).

ثالثاً - تمثل الصناعة الثقافية « L'industrie culturelle » - وهو المفهوم الذي استعمله أول مرة في سنة 1947 عَلمين من أعلام مدرسة فرانكفورت وهما "تيودور أدورنو" (Theodor Adorno) و"ماكس

هوركهيمر" (Max Horkheimer) (44 : 15/16) – تهديدا معتبرا على الثقافات التقليدية، بفضل ما تتمتع به من قدرة على الانتشار والاختراق (44: 38-39) ولذلك أصبحت حتى الدول الغربية تعبر عن خوفها من هذه الصناعة الثقافية الأمريكية بخاصة، التي غزت أسواقها، بحكم امتلاكها لإمكانيات هائلة، تجعلها تستبعد أي منافسة في الأجل المنظور.

رابعا- هناك خطر بالنسبة للبلدان النامية قادم من سلوك بعض النخب المسيطرة، التي تراهن عليها القوى الكبرى. فهي تعيش ، في مجملها، حالة اغتراب ثقافي، تجعلها تستشعر قابلية مطلقة للرضوخ للتدفق الإعلامي والثقافي الغربي العابر للقوميات، ولذلك فهي لا تملك أي خطة أو نية لمواجهة التدفق الإعلامي الغربي، أو تطوير الرصيد الثقافي لأمتها.

خامسا - قد يحمل الانتعاش الثقافي، الذي يترجم اليوم إلى ظاهرة انبعاث الهويات، مخاطر كثيرة، إذا حدث على شكل حركة تفكيكية من داخل الدولة والمجتمع، فقد يتحول إلى وبال على المجتمعات، وقد يؤدي إلى هز أركان الدولة، وإضعاف سلطاتها وقدرتها على التوجيه وقيادة التربية، عندما يصبح من مرادفات الاعتراف "بالهويات" الثقافية : الانقسام الاثني والطائفية .. إذن فاستمرار صيرورة التفكك لن يكون في صالح أي بلد على وجه الأرض، لأنه سيخلق بؤر توتر، تشكل تهديدا مستمرا للرأسمال والاستثمارات الأجنبية، وقد سبق وأن شدّد الأمين العام السابق للأمم المتحدة بطرس غالي بوضوح على حجم هذا الخطر الذي يتهدد البشرية قاطبة حينما قال: >> إن كوكبنا يخضع لضغط تفرزه قوتان عظيمتان متضادتان: إنهما العولمة والتفكك << (13 : 68)

وحامدي القول، فإن النتائج السلبية للعولمة ليست قدرا مقسوما وقضاء محتوما ، فإمكان مجتمعاتنا أن تجعل التقدم في ظلها ممكنا، إذا انعقد العزم على رفض القابلية للسيطرة. وإذا توحدت التصورات والأفكار والممارسات حول تصور بناء وثري للهوية والتنمية والشرعية.

فيمكن أن تفتح العولمة فرصا هائلة لتحرر الإنسانية >> فالتدفق الحر للقيم والمنتجات والمعلومات والأفكار والمخترعات، يقدم لكل فرد على مستوى الكرة الأرضية فرصا استثنائية للتقدم والازدهار المادي والنفسي << (30 : 31)

الهوامش :

1 - بدأ هذا الاهتمام منذ الثلاثينات بفضل الأنثروبولوجية الأمريكية التي انتقدت الدراسات التي تناولت الثقافة بشكل مجرد، دون محاولة الكشف عن الترابط القائم فيما بينها وبين الفرد، وقد أطلق على هذا التيار " مدرسة الشخصية والثقافة"، وهو بالرغم من ذلك يضم إسهامات متباينة من حيث منهج وتوجهات الباحثين ففي حين ينظر البعض إلى تأثير الثقافة على الفرد، اهتم البعض الآخر باستجابة الفرد للثقافة، ولكن بشكل عام اهتمت هذه المدرسة بدراسة كيف يستمدج الفرد الثقافة في ذاته، وكيف يستجيب الفرد لها أي كيف تحدد تصرفاته وتؤثر على قراراته وسلوكياته المختلفة. ولهذه المدرسة إسهامات كثيرة في هذا الإطار مثل أعمال ر. بينديكت (R. Benedict) (1887-1948) و لنتون (Linton) (1893-1953) ومرغريت ميد (M. Mead) (1901-1978) لمزيد من التوسع أنظر: (34-40 :33)

2- يعد جوهان هررد (Johann Herder) (1774) أول من بين أوجه العلاقة بين الثقافة واللغة. وقد اعتبر إدوارد ساپير (Edward Sapir) (1884-1939) اللغة الموضوع المفضل للأنثروبولوجيا، حيث عدت سمة ثقافية قائمة بذاتها. ويعد ليفي ستراوس (Lévi-Strauss) أبرز من بحث هذه العلاقة، وهو يدين للبنوية اللغوية في إثراء إسهاماته في الأنثروبولوجية البنوية. وهو يرى بأننا يمكن أن نتناول اللغة كمنتج للثقافة، وكجزء هام من الثقافة، والأكثر من ذلك فهي تمثل شرطاً للثقافة فبفضلها تتم عملية اكتساب الثقافة . (33 : 43)

3 - نظرا لكون الهوية مجموعة معالم الفعل، اللغة والثقافة ، والتي تسمح للفرد بتحديد انتمائه لجماعة اجتماعية محددة، فهي لذلك تمثل القلب النابض للغة والثقافة، كما أن الفرد من خلالها يتعرف على هويته، وهي تعد أيضا البوصلة بالنسبة للمجتمع: (40 : 9 - 10)

المراجع:

1. أمين، جلال: العولمة، سلسلة اقرأ ، عدد 636، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، 1998.
2. الأطرش، محمد : " العرب والعولمة : ما العمل؟"، المستقبل العربي، العدد 229 (مارس 1998) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
3. أمين، سمير: "عولمة الثقافة" في : برهان غليون وسمير أمين: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1999.
4. _____ : " تحديات العولمة"، مجلة شؤون الأوسط، العدد 71، (أفريل 1998) مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، القاهرة.
5. بارنيت، ريتشارد ج و مولر، رونالد : "من الكونية إلى مركز التسويق الكوني"، في مايكل تانزر وآخرين، من الاقتصاد القومي إلى الاقتصاد الكوني، دور الشركات المتعددة الجنسيات، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1981.
6. بيار أنصار: العلوم الاجتماعية المعاصرة، ترجمة نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1992.

7. بيجوفيتش، علي عزت : الإسلام بين الشرق والغرب، مؤسسة بافاريا للنشر والخدمات، ألمانيا/ مجلة النور، الكويت. الطبعة الأولى، 1994.
8. بن نبي، مالك : مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت، ص37.
9. بن نبي، مالك : شروط النهضة، ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر ، الطبعة الثالثة، بيروت، 1969، (الأصل 1948).
10. جيدنز ، أنتوني، عالم منفلت، كيف تعيد العولمة صياغة حياتنا، ترجمة محمد محيي الدين، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2000.
11. الجابري، محمد عابد : " العولمة والهوية الثقافية"، المستقبل العربي، العدد 228، (فيفري 1998)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
12. دينكن ميتشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1981.
13. هانس- بيترمارتن ، هارولد شومان، "فخ العولمة، الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية"، عالم المعرفة، العدد 238 (أكتوبر 1998) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
14. الزعي، هاني : مسألة البنية التحتية للقضية القومية، واتجاه قانون القيمة في العالم العربي، مطابع الكرمل الحديث، بيروت 1982.
15. ليب، الطاهر: سوسيولوجية الثقافة، دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1987، سورية.
16. مجاهد، حورية توفيق : الاستعمار كظاهرة عالمية، حول الاستعمار والإمبريالية والتبعية، عالم الكتب، القاهرة، 1985.
17. مطر، جميل : " حدود على السياسة... في عالم بلا حدود " المستقبل العربي، العدد 236 (أكتوبر 1998) بيروت.
18. نوداري، سيمونيا: "العونة في إستراتيجية الاستعمار الجديد"، في علماء سوفيات: النظام الاقتصادي الدولي الجديد، أكاديمية العلوم السوفيتية، موسكو، 1984.
19. نبيل، علي، "الثقافة العربية وعصر المعلومات"، سلسلة عالم المعرفة، العدد 265، (يناير 2001) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
20. سوزي، بول: "الشركات المتعددة الجنسيات والمصارف" في مايكل تانزر وآخرين، من الاقتصاد القومي إلى الاقتصاد الكوني، دور الشركات المتعددة الجنسيات، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1981.
21. سعد الدين، إبراهيم : " النظام الدولي وآليات التبعية"، المستقبل العربي، العدد 91 (أوت 1986) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
22. سعد، محمد : " الجنوب في التفكير الاستراتيجي الأمريكي: نموذج أطروحة صدام الحضارات"المستقبل العربي، العدد 236 (أكتوبر، 1998) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
23. عبد الرحمان، عواطف: "قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث"، علم المعرفة، العدد 78 (يونيو 1984) الكويت.
24. عكاش، سامر : "لعبة الوجود ومواقع الأشياء، تعقيبات على ملف العرب والعولمة"، المستقبل العربي، العدد 236 (أكتوبر، 1998) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
25. عتريسي، طلال: " المناظرة حول العولمة"، مجلة شؤون الأوسط، العدد 71، (أفريل 1998)مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، القاهرة.

26. فوكوياما، فرانسيس: نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1993.
27. روبرتسون، رونالد، العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافية الكونية، ترجمة أحمد محمود ونورا أمين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998.
28. توفلر، ألفن، حضارة الموجة الثالثة، ترجمة عصام الشيخ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، الطبعة الأولى، بنغازي، 1990.
29. تشومسكي، نعوم: " الديمقراطية والأسواق في ظل النظام العالمي الجديد" مجلة شؤون الأوسط، العدد (71 أبريل 1998) مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، القاهرة.
30. غليون، يرهان: " ثقافة العولمة" في : برهان غليون وسمير أمين: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1999.
31. غيث، عاطف قاموس علم الاجتماع، محمد علي محمد، السيد عبد العاطي السيد وسامية محمد جابر، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1979.
32. ثابت، أحمد: " العولمة والخيارات المستقلة"، المستقبل العربي، العدد 240 (فبراير 1992)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
33. خالد محمد: "موقع الوطن العربي ضمن تقسيم العمل الدولي"، مجلة العلوم الاجتماعية، عدد خاص: (العالم العربي في إطار التقسيم الدولي للعمل) تحت إشراف بشارة خضر، (ربيع 1983)، الكويت.
34. Balandier, George : Sens et puissance, Quadrige/ PUF, Paris, 1977.
35. Bougherara, Amina Hizia ; «conception américaine de la menace et mise en œuvre stratégique» NAQD, N°12,(Printemps/ETE 1999)Alger.
36. Chesneaux, Jean ; « Dix question-clés » (Mai1993) in : Cédérom de poche,(comprendre la mondialisation) Le monde diplomatique, Mars 1998.
37. Cuhe, Denys ; La notion de culture dans les sciences sociales, Editions Casbah, Alger, 1998/ Ed La Découverte, Paris, 1996.
38. Encyclopédie® Microsoft® Encarta 98. © 1993-1997 Microsoft Corporation.
39. Martinon, Jean-pierre : « sociologie de la culture » Encyclopdia Universalis, ©1998 France
40. Massiah, Gustave : «Division internationale du travail et alliance» in : S.Amin et Autres, La crise de l'impérialisme, Ed Minuit, Paris,1975.
41. Rocher, Guy : L'action sociale, introduction à la sociologie générale, Editions HMH, Paris,1968.
42. Samuelson, Alain : Economie internationale contemporaine, Aspects réels et monétaires, OPU, Alger, 1993.
43. Sumpf , Joseph et Hugues, Michel : Dictionnaire de sociologie, Editions Larousse, Paris, 1973.
44. Warnier, Jean-Pierre : La mondialisation de la culture, Ed Casbah, Alger/ Ed La Découverte, Paris, 1999.